٧ـ الجَزائِر

مدينة تعتمد الى تلال تكلأها، وتلقي عليها غاباتها ظلالها، وتطل عليها حنواً وعطفاً. فاذا اطمأنت المدينة الى المنعة والحنو والعطف اتخذت من البحر لها قبلة ووجهة، فاتسعت آفاقها باتساعه، وعمق شعورها بعمقه، وامتدت آمالها بامتداده، وهدأت احلامها بهدوئه، وثارت ثائرتها بعصفه، وجاشت خواطرها بثورته. ذلك كان شأنها يوم وضع الانسان الحجر الأول في مدينة الجزائر، ولا يزال شأنها كذلك الى يوم الناس هذا. عرفناها كذلك وأواسط يومها يقيظ، وعرفناها وأمسيتها تنعش، وعرفناها وليلها يقلقك برده.

اقام الانسان أول مأوى له فيها قبل آلاف من السنين. وبلغت القمة في تاريخها غير مرة. فعرفت الرفعة والثراء، وخبرت الضعة والفقر. لكنها، في كل حال، ظلت مرفوعة الرأس، منتصبة القامة، تؤثر الشرف على الاستكانة.

واذا نحن خصصنا عصوراً على انها قمم في تاريخ الجزائر ـ مدينة وقطراً ـ لوجدنا الدولة الحمادية بينها، وهي الدولة التي قامت في أوائل القرن الرابع (العاشر).

وقد وصف الادريسي القطر في ايامه قال:

«ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، والسفن اليها مقلعة، وبها القوافل منحطة والامتعة اليها براً وبحراً مجلوبة، والبضائع بها نافقة واهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصنائع ما ليس بكثير من البلاد، واهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة، ولها بواد ومزارع لفلاحة انواع الأثمار والأشجار وغراسة القطن والكتان وبقية انواع المنتوجات الزراعية. والحنطة والشعير بها موجودان كثيراً، والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفي لكثير من البلاد. وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود، ويجلب إليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة كما هي كذلك بعنابة، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة»[١].

وفي أيام الحفصيين منذ اواسط القرن السابع (الثالث عشر)، كانت الجزائر،

على ما يقول الجيلالي: «مزدهرة بما فيها من اسواق قائمة وتجارة رائجة في أنواع الحبوب والتمور والماشية والصوف، وخاصة بمدينة قسنطينة وبجاية وسطيف وميلة والقلعة وارض الزاب؛ وسير القوافل كان يومئذ منظماً ما بين الجزائر والسودان، وكذلك المواصلات بحراً ما بين المملكة الحفصية والولايات الاطالية كقطلونية وصقلية وجنوة. فإنه كان لهذه الدول الغربية معاهدات وعلاقات تجارية مع الجزائر وتونس وكانت لها محطات ومستودعات لتبادل التجارة منبثة بكامل سواحل الشمال الافريقي كمركز بونة وبجاية. فمن هذه كانت تستورد حاجياتها الضرورية من حبوب وزيت وسمك وصوف ومرجان وانواع البسط والجلد الخ .. وذلك ما كانت الجزائر ولا تزال تغله الى الآن، وان المملكة الحفصية كانت بدورها كذلك تستورد من الخارج انواع الزجاج والمصوغ وأدوات الحديد الصناعية الخ .. فازداد بذلك ثراء الرعية، وبلغت ثروة اسرة القائد نبيل عشرين قنطاراً ذهباً ومثلها من قيمة الجواهر والعقار والاثاث! ...»[٢].

ويحدثنا الغبريني عن التدريس في ايامه فيذكر «لنا من دواوين امهات الفقه موطأ الامام مالك والتهذيب للبراذعي والجلاب والتلقين للقاضي عبد الوهاب البغدادي. ومختصر بن ابي زيد ورسالته الشهيرة ـ والمدونة وكتاب عبد الله بن عبد الحكم. والتفريع لابن الجلاب ـ والتبصرة للخمي ـ وكتب ابن العربي والمازري والقاضي عياض. ولم يكن يومئذ يعرف بالجزائر او غيرها من بلاد المغرب مختصر خليل حتى جاء به محمد بن الفتوح التلمساني سنة ٨٠٥ [١٤٠٢] فأقبل عليه الناس وعنوا به وتناولوه بالشرح والتدريس مكتفين به عن بقية دواوين الفقه المالكي وامهاته»[٣].

ومن مشاهير الجزائريين في ايام دولة بني حفص يحيى بن عبد المعطي. ويؤخذ من مجمل ما قاله عنه المؤرخون انه «سكن دمشق فسمع بها من ابن عساكر، وأقرأ بها النحو فانتفع به خلق كثير، وولاه الملك المعظم مصالح الجامع. ثم ان الملك الكامل بمصر رغب اليه في الانتقال إلى القاهرة فانتقل الشيخ الى بلاد الكنانة وتصدر هنالك لإملاء الأدب العربي وتدريسه بجامعها العتيق فالتف يومئذ حوله الطلبة واحتفلوا لدروسه، وأقبل عليه الناس يعظمونه ويكبرون علمه وأدبه فأخذوا عنه علماً كثيراً وادباً جما، واجرى له الملك على ذلك جراية، فأكب المترجم على التدريس والتأليف فتخرج عنه عدد عظيم. وكان مما وضعه من التآليف ألفيته في النحو المشهورة باسم الدرة الالفية في علم العربية وهي التي اشار اليها ابن مالك النحوي في ديباجة خلاصته واثنى عليه فيها، وهي منظومة من بحرين بعضها من السريع وبعضها من الرجز»[٤].

ومن أهل الأدب والشعر في تلك الفترة محمد بن الحسن القلعي، الذي قيل فيه:

«برع الشيخ في فنون كثيرة من العلم وخاصة الادب فإنه كان آية في تحريره غزير المادة فيه، تقرأ عليه جميع امهات كتب الادب والشعر فيقوم على جميعها احسن قيام،

وكان يحضر مجالسه الكثير من فضلاء الطلبة ونبهائهم. وكثيراً ما كانت تعرض عليه المسائل العويصة والمشاكل المختلفة في التفسير والحديث وغريب الشعر وغيره فيتصدى لشرحها وتحليلها بكيفية عجيبة مما لا يكاد يوجد عند غيره من العلماء بل ولا في نوادر الكتب ايضاً. ومن تلامذته المشهورين ابو العباس أحمد الغبريني مؤلف عنوان الدراية». فقد لازمه اكثر من عشر سنين واستفاد منه علماً كثيراً وأدباً جماً وسطر اعترافه بفضل شيخه هذا في عنوانه فقال:

«وهو أفضل من لقيت في علم العربية، لزمت عليه القراءة ما ينيف على عشرة أعوام واستمتعت به كثيراً واستفدت منه كبيراً. قرأت عليه الإيضاح من فاتحته الى خاتمته، وقرأت عليه جملة من الامالي وزهر الآداب ومن المقامات وقصائد متخيرات من شعر حبيب ومن شعر المتنبي وحضرت قراءة المفصل. وكان رحمه الله محباً في التعليل. وله من التآليف كتاب سماه بالموضع في علم النحو، وحدق العيون في تنقيح القانون ـ لعله قانون ابي موسى الجزولي ـ ونشر الخفي في مشكلات ابي علي، هو على الإيضاح. وكان يؤثره على غيره من الكتب»[٥].

وللقلعي شعر صوفي لطيف. فمن ذلك قوله:

امن اجل ان بانوا فؤادك مغرم ... وقلبك خفاق ودمعك يسجم
وما ذاك إلا أن جسمك منجد ... وقلبك مع من سار في الركب متهم
ومن قائل في نظمه متعجبا ... وجسم بلا قلب فكيف رأيتم؟! ..
ولا عجب ان فارق الجسم قلبه ... فحيث ثوى المحبوب يثوى المتيم
وما ضرهم لو ودعوا يوم اودعوا ... فؤادي بتذكار الصبابة يضرم
عساهم كما ابدوا صدوداً وجفوة ... يعودون للوصل الذي كنت اعلم
واني لأدعو الله دعوة مذنب ... عسى انظر البيت العتيق وألثم
فيما طول شوقي للنبي وصحبه ... ويا شد ما يلقى الفؤاد ويكتم[٦]

وقد أغرم غير واحد من الشعراء في ذلك الوقت بالتشطير والتخميس. فمن ذلك ان أحمد بن أبي القاسم الخلوف سمع بيتين لابن الاحمر صاحب الاندلس هما:

افاتكة اللحظ التي سلبت نسكي ... على أي حال كان لا بد لي منك
فاما بذل وهو أليق بالهوى ... واما بعز وهو أليق بالملك

فقال مخمساً:

اماط الهوى عن واضحي برقع النسك ... فوحدت من اهواه عن هوة الشرك
فقلت وقد افتت لحاظك بالفتك ... افاتكة اللحظ التي سلبت نسكي

على اي حال كان لا بد لي منك

يمـيناً بنجم القـرط منك اذا هوى وخـال على عـرش وجنتك اسـتوى
لئن لم تفي لا بد للقلب مـا نوى فـامـا بذل وهو أليق بالهـوى
وامـا بعـز وهو أليق بالملك (٧)

وللجزائر تقليد ادبي مستمر. فهذا محمد بن عمر المليكشي من أهل القرن الثامن (الرابع عشر) ذكره الرواة فقالوا: «كان صدراً في الطلبة والكتاب، فقيهاً كاتباً اديباً حاجاً راوية متصوفاً فاضلاً صاحب خطة الانشاء بتونس، ذا تواضع وايثار وقبول حسن، له شعر رائق، ونثر فائق، وكتابة بليغة، وتآليف مستظرفة، وعرفه المقرّي في نفحه نقلاً عن كتاب الاكليل الزاهر لابن الخطيب فقال بعدما ذكر اصله ونسبه حسب ما تقدم ... كاتب الخلافة، ومشعشع الأدب الذي يزري بالسلافة. كان بطل مجال، ورب راوية وارتجال، قدم على هذه البلاد وقد نبا به وطنه، وضاق ببعض الحوادث عطنه، فتلوم به تلوم النسيم بين الخمائل، وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل، ولبث مدة اقامته تحت جراية واسعة، ومبرة يانعة. ثم آثر قطره، فولاه وجهه وشطره، واستقبله دهره بالانابة، وقلد خطة الكتابة، فاستقامت حاله، وحطت رحاله، وله شعر أنيق، وتصوف وتحقيق، ورحلة الى الحجاز سعيها في الخير وثيق، ونسبها في الصالحات عريق.

«حدّث بعض من عني باخباره، ايام مقامه بمالقة واستقراره، أنه لقي بباب الملعب من ابوابها ظبية من ظبيات الانس، وقينة من قينات هذا الجنس، فخطب وصالها، واتقى بفؤاده نصالها، حتى همت بالانقياد، وانعطفت انعطاف الغصن المياد، فأبقى على نفسه وامسك، وأنف من خلع العذار بعدما تنسك وقال:

لم انس وقـفـتنا بـبـاب الملعب بين الرجـا واليـأس من مـتـجنب
وعـدت فكنت مـراقـبـاً لحـديثـهـا بأذل وقـفـة خـائف مـتـرقب
وتدللـت فـذلك بعـد تعـزز يأتي الغـرام بكل امـر مـعـجب
بدوية ابدى الجـمـال بوجـهـهـا مـا شـئت من خـد شـريق مـذهب
تدنو وتبـعـد نفـرة وتجنبـاً فـتكاد تحـسـبـهـا مـهـاة الربرب
ودنت بلحظ فـاتن لك فـاتر انضى وامضى من حسام المضرب
وأرتك بابل سـحـرها بجـفـونهـا فـسبت وحق لمـثلهـا ان تسـتبي
وتضـاحكت فـحكت بنيّـر ثغـرها لمـعـان نور ضـيـاء برق خلب
بمنظم في عـقـد سـمطي جـوهر عن شـبـه نور الاقـحـوان الاشنب
وتمـايلت كـالغـصن اخـضله الندى ريان من مـاء الشـبـيـبـة مخـصب
تثنيـه أرواح الصـبـابة والصـبـا فـتـراه بين مـشـرّق ومـغـرب
ابت الروادف ان تمـيل بمـيله فـرست وجـال كـأنه في لولب

متتوجاً بهلال وجه دل في حلل السحاب لحاجب ومحجب
يا من رأى فيها محبا مغرما لم ينقلب إلا بقلب قلب
ما زال مذ ولى يحاول حيلة تدنيه من نيل المنى والمطلب
فأجال نار الفكر حتى اوقدت في القلب نار تشوّق وتلهب
فتلاقت الأرواح قبل جسومها وكذا البسيط يكون قبل مركب[٨]

الهوامش

(١) الجيلالي، ج ١، ص ٣٣.
(٢) نفس المكان، ج ٢، ص ٤٠ـ٤١.
(٣) نفس المكان، ج ٢، ص ٤٢؛ والحفناوي: تعريف الخلف، ج ١، ص ٢١ـ٢٢.
(٤) نفس المكان، ج ٢، ص ٥٥ـ٥٦؛ وابن خلكان: وفيات الاعيان، القاهرة، ١٩٤٨.
(٥) نفس المكان، ج ٢، ص ٦٠ـ٦١؛ الحفناوي: تعريف الخلف، ج ٢٢، ص ٣٥٩ـ٣٦٣.
(٧) نفس المكان، ج ٢، ص ٦٥؛ والسخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة ١٣٥٣، ج ٢، ص ١٢٢ـ١٢٣.
(٨) نفس المكان، ج ٢، ص ١١١ـ١١٢.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة , اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت , الجزء الثالث عشر - مدن عربية